غابة الطفولة

عبثاً تُجدي ضراعتي .. وإن أُنا لجمت عقارب الساعة، فجواد الزمن لا يعرف اللجام !

عبثا احاول الخلاص من جاذبية الغد، ولو لكسرة من البرهة .. ان حبالا من النار تشد قدمي ابدا الى امام .. الى امام، ولو تحجرت للحظة فالويل لي من السقوط ..

العاصفة رفيقتي في مسيرتي، والشمس منارتي الابدية، وخطاي تجتاز الحياة وتخترق الموت ..

على كتف احمل تابوتي، وعلى كتفي الاخر احمل كيسا من الخيش ..

شواهد القبور الرخامية وآلاف الاشباح تنتصب على جانبي الطريق لتسألني في فضول طيب:

ـ ماذا تحمل في كيسك ايها الشاب؟

ـ في كيس الخيش احمل يا احبائي حقيبة مدرستي وثياب العيد وعلب الحلوى الفارغة .. وغابة الطفولة!

ـ الا تحدثنا عن غابة الطفولة ايها الشاب ؟

ـ بلى .. احدثكم يا احبائي .. احدث الظالم منكم والمظلوم .. أحدث الظالم لعله يندم، واحدث المظلوم لعله يثور !

ـ كنت طفلا يا احبائي .. ولوالدي كروم من الزيتون وكروم من العنب واللوز .. ولوالدي كانت غابة فيها من السنديان والعبهر والخروب والاجاص البري ..

ـ أتقول «كانت» أيها الشاب ؟

ـ دعوني اتكلم .. دعوني .. اقول كانت ولا اقول انها ليست بعد!

اقول كانت لوالدي غابة هي بساطة الخالق وهيبته .. وكنت اعود في المساء الى بيتنا القروي السعيد لتؤنبني امي على طول غيبتي خارج البيت .

ـ ألم تشبع من الشقاوة في ساحات البلد وشوارعها ؟ كانت توبخني أمي !

دميت ركبتاك يا ولد وتغبرت ثيابك وشعرك واذناك ! وفجأة ينقلب الطفل المرح الضاحك دائما الى ذئب عصبي غاضب :

ـ اجل لم اشبع يا أمي .. اريد ان العب اكثر من كل الاولاد ..اريد ان اذهب بعيداً واعود متأخراً وان افعل ما اشاء !

وكانت امي تزداد غضبا وزجراً ووعيداً ..

وهنا .. يضع ابي كوب الشاي على مائدته ليتدخل بهدوء .. وليقول لي بهدوء :

ـ حسنا يا بني .. غدا آخذك معي بعيدا .. كما تريد .. لتعود متأخرا .. كما تريد .. ولتفعل هناك ما يطيب لك !

وكنت ألح في السؤال : الى اين ستأخذني يا ابي الى اين؟

ولم اكن احسن النوم الا بعد ان يهمس والدي بهدوء :الى الارض.. الى ارضنا !

في طليعة النهار .. وقبل ان تشرق الشمس، كنت احس بكف تهز كتفي هزاً رفيقاً .. وكأنما من مسافة بعيدة ، كان يجيئني صوت

طيب عميق :

سميح .. سميح .. قم يا ولدي .. النهار ملأ الدنيا، ويجب ان نمشي.. سأعود بعد دقائق لاجدك مستعداً !

كان والدي يعود الى غرفته ليهيىء شؤونه ، وكنت اسحب اللحاف الى ما فوق رأسي جاذبا ركبتي الى ما تحت ذقني، متكورا في الدفء كالقط السعيد ..

وبعد مدة من الوقت لا اذكر عمرها .. كنت اسمع وقع خطى يدنو من سريري .. انها خطى ابي التي احفظها عن ظهر قلب، لم اكن ابصر تعابير وجهه عندما يجدني ما زلت غارقا في الفراش .. لكنني اذكر صوته العسكري وعباراته الصارمة .. كان والدي في تلك اللحظات تعود اليه شخصية الضابط التي عاشها اعواماً عديدة، فيصيح بي:

ـ ما هذا يا ولد؟ انسيت ما قلته امس ام ندمت؟ ان كنت لا تنهض حالا فسأسكب على قدميك ماءاً بارداً لتصحو!

لم أكن أخشى حكاية الماء البارد، لانني كنت اعلم جيدا ان والدي يقلق كثيرا اذا رآني اعاني قليلا من الزكام .. واذا لمح في وجهي خدشا او في مرفقي!

كنت أشعر بكثير من الندم على الحاحي، مساء الامس، وقليل من الخجل ازاء تحدي والدي.. وكانت الرغبة في الرد على التحدي تتغلب علي اخيرا، وانهض لاغتسل واشرب القهوة التي اعدتها امي.. ثم انتعل حذاءا عاليا واعقد منديلا حول عنقي واحرص على تحسس المدية الصغيرة في جيب بنطالي..

كان والدي، يبدو عندها راضيا كل الرضى، فيرمقني باعتداد ثم يمضي ليحمل بندقية الصيد .. و..

.. «هيا يا بني» .. لكن قبل انطلاقنا نحو الارض نحو ارضنا..

كانت امي تصر على أن أحبس شعري الطويل حتى منتصف جبيني بقبعة، خوفا من «ضربة» الشمس !..

كنا نبتعد ابي وانا، ومن ورائنا كلبنا السلوقي المرح، عن البيت، وملاحظات امي لا تنتهي .. لكن تنبيهاتها الآن كانت مفعمة بالحنان: إحذر الافاعي يمّه .. العقارب تكمن تحت الحجارة .. لا تبتعد كثيرا عن ابيك.. لا تتسلق الاشجار العالية.. لا تترك .. لا، لا .. في طريقنا نحو الارض.. نحو ارضنا، كنا نلتقي بابناء قريتنا، كل في سبيل رزقه، وكنت احس كأنما هناك نوع من السباق .. كأن ابناء قريتي يتبارون في المبادأة بطرح تحية الصباح !

الى جانب احد البيوت وقف شاب .. في عز الشباب .. واخذ ينادي: سعيد: سعيد! يا سعيد!

وانفتحت نافذة اطل منها شاب يرتدي فانيلا زرقاء ..

- صح النوم يا افندي وصباح الخير !

- صباح النور .. اطلع!

- الى اين اطلع؟ الا تنوي ان تذهب اليوم الى الشغل؟

- اي شغل يا شيخ! اولاد الحلال ما اعطوني تصريحا! واستمر الحديث بين الإثنين .. واستمرت خطى والدي السريعة .. وانا من خلفه اغذ السير باطمئنان .. يبدو ان الذهاب الى ارضنا لا يقتضي تصريحا!

على سفح جبل حيدر الاخضر دائما.. وفي المسرب الضيق الذي تتسع في نهايته ارضنا، كنت اتفوق على والدي في السير .. كنت كالجدي الذي يقفز حول الراعي طروباً لرنة الأجراس، لكنني في تلك اللحظات لم اكن اتخيل ابي راعيا ولم اكن اتخيل بندقية صيده عصا..

كنت اتخيله فجأة ضابطاً ببزته المهيبة.. تماما كما كنت أراه في طفولتي المبكرة عندما يعود من دورية تدوم اسابيع، محملا باصناف الحلوى والهدايا .. ليروي لنا مشاهداته في سورية والاردن والجزيرة العربية وايران .. وبلاد الله الواسعة!

كنت أحس برغبة جامحة في أن استعيده الذكريات في تلك اللحظات .. لكنني انزلق فجأة عندما «تفرك» تحت قدمي حصاة .. فيلتفت الي لياخذ بيدي .. واقف نافضا الغبار والشوك عن ثيابي .. وتحين مني التفاتة الى قريتي .. التي اصبحت كلوحة في إطار اخضر لا نهائي .. او كجزيرة في بحر من اشجار الزيتون الغامقة .. لا حدود له!

كنت امتص قريتي بعيني .. بيتا بيتا وشارعا شارعا .. واحاول ان احزر بيوت جميع لداتي! فلا اصحو من ذهولي الا لاكتشف ان ابي اضحى بعيدا عني فأخف اليه كعصفور .. كجدي .. كنسمة!

على رأس الجبل كان يقف والدي ليجفف عرقه .. وحين ادركه انتصب الى جانبه لاهثا وعيناي معلقتان على شفتيه .. انتظر كلمة يقولها .. حكاية مقتضبة عن جدي الذي توفي قبل ان ترتسم في ذهني ذكرى واحدة معه .. كنت احس بفخر واعتزاز عجيبين عندما يروي لي ابي قصة جدي مع الارض..

- جدك يا ابني لم يكن فلاحاً. كان خالق ارض .. هذا الميراث العريض الذي خلفه .. هذا الميراث الذي يوفر الحياة الكريمة لعدة اسر صنعه بيديه .. بقوى زنديه طوع الصخور .. غزا سفوح البلان وحولها الى جنات عنب .. فتح السهل البري والوادي المتوحش بجلد وتفان وقال لاشجار الزيتون: كوني.. فكانت!

حتى الغابات المستعصية هذبها جدك .. شذب اشجار البلوط، وربّى اجباب البطم.. بينما انا واعمامك في بلاد الغربة.. نصارع ونغامر، نتعرض للاخطار ونحارب، في سبيل نجوم من الفضة تلمع على اكتافنا .. لكنك ترى يا ولدي اننا عدنا اخيراً.. عدنا بعد طول تجواب لنرتاح على اعتاب بيوت جدك .. ولننعم برزق من خيره .. كل شيء يذهب يا ولدي .. حتى النجوم الفضية! ما عدا الارض.. الارض وحدها الباقية .. الارض كانت رصيدنا الوحيد في بنك الدنيا .. لم نعبأ بها ذات يوم، لكننا بعد طول المطاف عدنا لنسألها ما ادخرته لنا من قوت كريم!

بعد استراحة قصيرة تحرك والدي .. وانطلقت خلفه متأملا آثار حذائه في التراب الاحمر ..

- ها قد وصلنا..

وانطرحنا تحت الخروبة الكبيرة.. مظلة اله الخصب والنماء .. كرم العنب امامنا .. قطعة من بحر اخضر تتموج في هيبة ورتابة محببتين ..

كرم العنب امامنا.. بساط ريح من الحيوية الدافقة والامل الخير..

وارتفعت ذراع والدي على كتف نسمة..

- هناك غابتنا.. غابة جدك التي رباها وعلمها ان تحنو على الانسان..

وانخطفت عن التراب كأن يداً خفية سحبتني.. وانطلقت .. لاسلم على جدي وابوس يده .. وانا أكاد لا أسمع صوت ابي المنبه ورائي .. اذكر ما قالته لك امك! لا تتسلق الاشجار العالية... لا تذهب بعيدا .. لا تنس .. لا .. لا ..

وانحطت يدي على الجذع الاول من الغابة الحنون .. وانزلقت راحتي تتحسس خشونة الخشب الحي الممتعة .. رفعت وجهي نحو السماء الخضراء .. فسقطت قبعتي واهملتها .. انا في غابتي .. في بيتي، تراب هذه الغابة ومشجب البيت سواء .. كلاهما طمأنينة والفة .. كانت الشمس قد اثبتت وجودها .. حزم الضوء النافذة من خلل الفروع تجبرني على ان اغمض عينا واجوس حجرات الخضرة بعين نصف مغمضة.. لو استطيع ان اتسلقك يا سلم الشعاع!

وضحكت للفكرة .. وعدوت .. اسراب العصافير المذعورة تملأ ملعبي شيئا بين الزقزقة والكلام .. العصافير الموشاة بشتى الالوان تنشد .. تماما كما نفعل في ساحة المدرسة قبل بدء ساعات الدوام!

وعدوت.. وقفزت.. وانشدت مع العصافير.. وتسلقت الاشجار العالية.. وذهبت بعيداً وقضمت ثمار البلوط .. وتخدشت ساقاي .. وثيابي!

انا سعيد!. انا سعيد!. فلتوبخني امي كيف شاءت .. لو عرفت مقدار سعادتي لغفرت لي .. ولرقعت ثيابي بهدوء ..

أيتها الشجرة! سأحفر اسمي عليك حتى تذكريني .. وانت .. سأحفر على جذعك اسم امي وابي .. واخواتي وإخوتي جميعا .. اما اسماء اصحابي فهناك احفرها..

وعلى تلك الصخرة سأرسم خريطة بلادي..

وتنبهت فجأة في قليل من الذعر.. هذه الطلقات لا اجهلها .. ديكان بالتمام .. فشكة جفتك يا ابي لا تسقط وحدها على الارض ..

وجاء صوت والدي مناديا ..

واصررت على ان احمل ديكي الحجل بنفسي، الى حيث ينتظرنا جرن الكبة..

وانطلقنا عائدين .. كنت في عودتي متعبا، متعبا، واليوم وقد كبرت قليلا اصبحت اومن ان العودة، دائما يثقلها التعب!!

في البيت هرع اخي الصغير متطوعا ليفك سيور حذاء والدي .. واخذت امي تتفحصني لترى الى اي مدى لم احافظ على تنبيهاتها!.

تكررت زياراتي لغابة جدي .. وغابة طفولتي .. حتى انهيت دراستي الابتدائية في القرية .. واختار والداي ان يدخلاني كلية «تيراسانته» في الناصرة واعجبتني الفكرة .. لا ظنا مني بان المنهاج الدراسي في "تيراسانته" افضل منه في مدرسة الرامة الثانوية .. بل رغبة في انطلاقة نحو افق جديد .. واذا كانت هذه "الانطلاقة" تبدو في نظري اليوم ساذجة وضئيلة، فقد تصورتها آنذاك مغامرة خصبة وممتعة..

وذهبت الى الناصرة حيث أتممت دراستي الثانوية.. وتلقفتني أيسر الوظائف .. وظيفة التعليم.. وما داموا قد شبهوا الحياة بالبحر .. فدعوني اقل انني اصبحت عرضة لامواج اعلى .. اين منها دفقات الطفولة المرحة .. وأصبحت عرضة لحيتان خطيرة، أين منها أسماك الطفولة الوديعة!

وامعن الملاح الصغير يصارع اللجج الضارية .. تارة غالبا وطورا مغلوبا!

وتقلبت الايام .. وتقلبت في الوظائف والأعمال .. من المكتب الانيق الى مجاري المصانع في خليج حيفا، ومن ربيع الكرمل الدائم الى خريف النقب الدائم .. من القرية الى المدينة .. الى الصحراء ..

وذات يوم وجدت نفسي بلا عمل.. ولم يكن لي مكان اذهب اليه

سوى بيت ابي وجدي .. وعدت الى قريتي.. ودون ان يوقظني ابي في ساعات الفجر، وجدني جاهزاً لمرافقته الى الارض.. الى ارضنا!

مشواري هذه المرة لم تكن فيه سمة او رائحة من مشواري القديم.. كأن اجيالا باكملها تفصل بينهما .. غير ان غابة طفولتي كانت ماثلة في قلبي وذهني .. تماما كما كانت قبل حوالي خمسة عشر عاما يوم زرتها للمرة الاولى!.

ووصلنا!

وفجأة عادت الي طفولتي .. عادت بكل خفتها واندفاعها.. عادت فأين انت يا غابة الطفولة؟! وعدوت.. لكنني تجمدت لدى الشجرة الاولى من الغابة الـ .. لا .. لا .. ليست هذه غابتي تلك الحنون!. هذه التي امامي، متوحشة .. كئة، عابسة! والتفت نحو والدي .. كالملدوغ!

ـ ابي! ماذا جرى؟ ما للغابة مهملة؟

تسمرت عينا ابي على الغابة .. غابة طفولتي .. واتكأ على السلسة الحجرية وكانه يتلافى السقوط .. وكانما من بئر لاقرارة لها.. جاءت كلمات والدي متهدجة .. بطيئة .. وثقيلة:

ـ الغابة صودرت! دائرة اراضي اسرائيل ضمتها الى املاك الدولة!

طول عمري لم ار عيني ابي تلمعان بهذا الشكل .. ابي لم يجسد ازاء عيني ذروة العذاب الانساني بهذا الشكل سوى في اللحظات التي كانت تغادر فيها الواحدة من شقيقاتي عتبة بيتنا حيث عشنا معا سنين طويلة حافلة، الى بيت عريسها ..

لكن والدي لم يفرض على اية من شقيقاتي زوجا! واندفعت الى احشاء غابتي كالمصعوق ..

اندفعت اسال قلبها ان كان حقا لم يعد لي!

اليوم صار علي ان اتحرز بتصريح اذا شئت ان اؤدي طقوس الوفاء لغابة طفولتي ..

ولكن قدس الاقداس يا احبائي ما زال راسخاً عميقا في جذور السنديان والخروب والعبهر..

وغابة الطفولة .. طفولتي .. يا أحبائي ما زالت تحمل اسمي وجميع الاسماء التي حفرتها على جذوعها .. ما زالت تحملها وشما ابديا .. وذكرى باقية بقاء الكرة الارضية نفسها!

أتسألون بعد يا احبائي .. ماذا احمل في كيس الخيش؟!.